المبحث الثالث

شعرية التعبير الكنائى فى ضوء لسانية النص

(درس تطبيقي)

obeikandl.com

obeikandl.com

يهتم هذا المبحث بدور التعبير الكنائى فى شعرية النص، وكل ما من شأنه توليد الدلالة، وإخراج الصور، وتشكيل الظلال، دون إقحام هذه القواعد البلاغية على بنية النص، فالنص هو الذي يستدعيها، وليست هي التى تستدعيه .

إن دراسة شعرية التعبير الكنائى فى ضوء لغة النص المتشابكة، ومدى إسهام هذه الشعرية فى فضاء النص العام ليُؤكد ثراء هذا التعبير ومجازيته التى ترفض كلَّ الدوال " الحرفية " ليصبح فى دائرة الإبداع، خلْقا لغويا يخالف كل ما هو مألوف يتطلب مقاربات ومحاولات دءوبة لكشف أسرار هذا التعبير، لذا فقارئ النص الإبداعي لابد له من معرفة العلاقات التى تشكل هذا النسيج، الذى يتسم بالتعددية والتوتر والممانعة، ليبحر في مغامرة التأويلية الشعرية، إنها قراءة للعلاقات فى سياقها حينئذ ستكون منتجة ولودة، وليست مستهلكة عقيمة، قراءة

مبدعة، ليست ساكنة ميتة، سنختار نموذجين شعريين، أحدهما من الشعر العربي التقليدي، والآخر من الشعر الحداثي المعاصر، نطبق عليهما، مبينين فنية وثراء التعبير الكنائي مع التشكيلات الفنية الأخرى، سعياً نحو ثراء دلالة النص وبلوغ غايته ..

* * *

obeikandl.com

النموذج الأول :

يقول (ابن زيدون) مخاطبا أبا حفص بن برد، وقد حار ولم يجد هاديا، وصار رهنياً لا يرجو فادياً، وقد ألِم من تبدُّل الآخرين وتحولهم وانقلابهم، بعدما انقلب الدهر عليه ناسين الولاء أو الود الذى كان ردءاً براقاً مع المهزوم فى يوم سالف، فهم لا يدينهم فى الشدة إخاء، وقد عصفت به رياح عاتية :

يـــا أبـــا حفـــصٍ وماســـــَا
وَاك فى فهـــمٍ إيـــــــــاسُ
مـــن سَـــنا رأيـــك لحَـــا
فى غَسَق الخَطْب اقْتِبـــــاسُ
ودَادي لـــــــك نـــــــصٌ
لمْ يُخَـالفـــــــهُ قِيَـــــاسُ
أنـــا حيـــرانٌ ولِلْـــــــــــــ
ـــــــأمْرِ وُضُـــوحٌ والْتِبـــاسُ
مـــا تَـــرى فـــى معشـــرٍ حَـــا
لـــواعَن العَهْـــد وخـــــــاسُوا

و رأونِـــــــى سَامِريـــــــاً
يُتَّقَـــى مِنْـــــه المَســـــــاَسُ
أذْؤُبٌ هَامَـــــتْ بِلحْمِـــــي
فاتتهَـــــاشٌ وانْتِهـــــــاسُ
كلهُـــم يســـــأل عـــن حـــــاَ
لـــي و للذئـــــب اعْتِســـاسُ
إن قســـا الـــدَّهر فللـــــما
ء مـــن الصـــخر انْبِجـــاسُ
ولـــئن أمسَـــيت مَحْبـــــو
سا فللغـيْث احتِبـــــــاسُ
يلْبَـــدُ الـــــوَرْدُ السبتَـــــى
ولـــه بـــعدُ افتـــــراس (١)

تعتصـر لغـة الـنص ألمـا وحزنـاً وبؤسـاً عنـد تحـول النـاس حـين ينفضـون ويتحولـون، والغـدر والخسَّـة تفـوح فـى فضـاء الـنص مـــن عفـــن الألفـــاظ والتراكيـــب، التـــى تفجـــرت عـــن دلالات

١- ديوان ابن زيدون، شرح محمد سيد الكيلاني، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر (تراث العرب:٢) (د/ت)

مخزونة فى قيعانها، وتتوالى الكنايات فى توليد الدلالة على النحو التالي:

أولاً : استنهاض الهمة نحو جلاء الحقيقة وإدانة الظلم .

- ما ساواك فى فهم إياس

إن القراءة الممعنة فى السياق العام تسمح لنا بأن نكتشف ما وراء الدال الأول(الحرفي) دالاً آخر(مرادًا)، يثبت أن التعبير الكنائى فيه من الشعرية ما يجعله قادراً على توليد دلالات أقوى وأغزر، هي البغيةُ فيه، إنها دلالة"استنهاض الهمة نحو جلاء الحقيقة"،في[المتلقي /الممدوح]، الذي يستحضره الشاعر بذكاء، عن طريق هذا النداء الذى صدره بيته، ليجعله نشطاً حاضر الذهن ليستقبل رسالته استقبالاً صائباً وليطرح عليه ما لم يستطع أن يطرحه مباشرة، مِن أنَّهُ ممن لا يخفى عليه أمره ، ولا تغيب عنه قضيته، وقد استطاعت الألفاظ عبر البيت إثارة هذه الدلالة المبتغاة،وكانت على النحو التالي:

ما سواك = التفوق فى الذكاء

فهم = الذكاء

إياس = رمز الذكاء

إن الشاعر وهو فى قاع بئر عميق من الخسة والغدر والصمت عن المؤاذرة وموت النهوض، يجعل من استخدامه هذا (الاسم / إياس) بريق أمل نحو الفرجة، نحو عدالة قضيته، نحو الخروج من مسقط الذل والظلم، فمَنْ شأنه شأن" إياس" أن يضع الأمور فى نصابها وأن يعيد إليها حقها، إنه فى النهاية تمهيد ذكى من الشاعر نحو استقطاب (الآخر / الممدوح) نحو قضيته والنظر فيها، فهو ليس أهلاً للسجن وليس أهلاً للذل، وسوء الفهم من لدن الآخرين .

ثانياً : دلالة الفرجة والأمل :

- من رأيك لي فى غسق الخطب اقتباس

إن هذه الصورة الكنائية تستحضر فضاء الفرج الآتي، فضاء الخروج من ظلمة الظلم وغياهبه، حينما يتمخض التعبير الكنائى عن دلالة :

الفرجة والأمل ، فرأْيٌ مضيءٌ تتجلى فيه الأمور، وتتكشف في ساحته الحقائق، لا شك طارد لظلمة حالكة، واستعان الشاعر بالمصدر في" اقتباس"مؤكداً ثبات الدلالة وعدم تحولها، وهو لا محالة طامع في حسن قراءة (الآخر/ الممدوح) لحاله ولشكواه ، ويستعين بتقديم "من سنا رأيك لي " على " اقتباس" ليقينه بأن هِمَّة (الآخر /الممدوح) ورجاحة رأيه، عماد قضيته وسنام أمره، كما أن تعريف "الخطب " أبْيَنُ على تجسيد أمره، ومعرفة همه، وهو مما لا يخفى.

ثالثاً : دلالة : الإخلاص والوفاء

- ودادي لك نص لم يخالفه قياس

وتؤكد الصورة الكنائية منطقاً يُخْرِج الشاعر عند (الآخر / الممدوح) من سوء المظنَّة، وكيف بطُئَ أمرهُ نحو فكِّ أسره وزوال همِّه لذا فينتج التعبير الكنائى دالاً . غائباً . يؤكد الإخلاص والوفاء وصحة النية وسلامتها، وغياب الخطأ، ومظنة السوء في حق(الآخر / الممدوح)، وقد أبان التركيب اللغوي حرص الشاعر في بيان ذاته

وحقه فى توكيد إخلاصه حين قدَّم"ودادي" على الجار والمجرور " لك ' خلافا لما صنعه فى البيت السابق (الثاني) .

رابعاً : دلالة : الارتباك والغموض .

- أنا حيران ولله أمر وضوح والتباس

والحقيقة أن الشاعر قد مهَّد لهذه الدلالة من وراء كنايته السابقة فى بيته"الثاني" حين أكد على ضرورة حاجته لـ (سنا رأى الآخر/ الممدوح) ليستنير من غسق ظلمةٍ تغمره، فالبيت تعبير كنائي عن"ارتباك نفسه وغموض أمره" ولعل وجود التقابل بين [الوضوح والالتباس] ما يبين حركة الصراع الثائرة فى نفس الشاعر، فمن شأن التقابل ثورة المعنى وبُعده عن السكون والهدوء ووجود " أنا حيران " مسند إليه ومسند دون فاصل بينهما، يؤكد ويجسد اضطراب الشاعر حيال ما هو فيه من ظلم، ومن عجبٍ لحاله المتأرجح بين وضوح والتباس .

خامساً : دلالة : الخسة والغدر .

- ما ترى فى معشر حا لوا عن العهد وخاسوا

يتوجه الشاعر نحو علَّة الحيرة والارتباك الذى هو فيه، حين يقع الاستفهام دالاً على التعجب المشوب بالحسرة فى هؤلاء الخونة الذين غدروا ونكثوا وانفضوا عنه، إن التعبير الكنائى يولِّد "الخسَّة والغدر" فى أوضح تجلياتها حين يقيم الشاعر تقابلاً بين (حالوا – خاسوا) ولفظه " العهد " التى تستدعى بالضرورة عدم التحول والغدر والنكْث، كما يؤدى الفعل " ترى " دوره فى تصويرحي مرئي لهؤلاء النكرة " معشر" ليزداد احتقارُهم واستهجانُهم.

سادساً : دلالة : النفور والبعد .

- ورأوني سامريا يتقى منه المساس .

ويزال الشاعر يبين حنْق وغدر مَنْ حوله، حين تستعير لنفسه صورة "السامري" من بنى إسرائيل، وقد تجنبه اليهود لعبادته العجل، وقد استعان الشاعر بصوت "السين" المهموس الصفيري

مرتين فى كلمة : (المساس) ، ليرتدَّ به نحو السين فى (سامريا) ليجسد مدى ابتعادهم وظلمهم وغدرهم من ناحية، ومدى ما هو فيه من حوار نفسي داخلي، وهو صفير يكاد يصمه من سوء فعلهم وشناعة قصْدهم، ولعل بناء الفعل "يُتقى" للمجهول فيه من بيان كثرتهم واستهجان معرفتهم ما هو أوضح وأبين .

سابعاً : دلالة الافتراس .

– أذْؤُبٌ هامت بلحمي فانتهـــاش وانتهـــاس

إن الشاعر يصدر بيته بهذا "الجمع : أذؤب " لبيان الكثرة صورة لهؤلاء الحمقى الناكثين الغادرين، ويأتي" الفعل : هام " ماضياً ليبين وقوع الطامة، بحبهم وولعهم بافتراسه/ ظلما، والتَّقَوُّلِ عليه ويأتي الشاعر بالمصدرين : " انتهاش " و"انتهاس " على نفس الوزن "افتعال " بياناً رائعاً على تعمدهم وتلذذهم فى نهش عرضه وسيرته ولَوْكِ أمره ظلما بأفواههم، بل إننا نكاد نسمع تألم الشاعر وأنينه من خلال هذين " المصدرين " بدلالتهما على الطحن والتقطيع.

ثامناً : دلالة : الترقب المشوب بإيقاع الضرر .

- كلهم يسأل عن حا لي وللذئب اعتساس

يصور الشاعر حركة هؤلاء الجبناء الحثيثة المترقبة، لما يؤول عليه أمره، فى خفاء وتستر، بصورة الذئب الذى يعسس ليلاً، غدراً ومباغتة والشاعر يسلب السؤال – فى بيته – غايته، ليُنْتِجَه (الآخر / الممدوح) من عبارة"وللذئب اعتساس" ليفرغ السؤال من مضمونه، فهو سؤال الشامت، سؤال الخائن الغادر، فى ظاهرة التآخي، وفى باطنه الرغبة فى الزوال والانتهاء .

تاسعاً : دلالة : الفرج بعد الشدة .

-إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انْبجاس .

ولأن الشاعر لم يقنط، ولم ييأس، يأتي بالتعبير الكنائي دالاً على "الفرج بعد الشدة " وهو فرج عظيم وقوى قد بناه الشاعر فى إطار تركيب شرطي تلازمي مؤكداً أنه لا يوجد كرب وظلم إلا ويعقبه فرج وعدل، ويأتي الشاعر بمقابلة على مستوى البيت بين:

قسا الدهر = همٌّ ومصائب

الماء المنبجس = فرج وخير ورحمة

ويكنى الشاعر بلفظه " الصخر" عن شدة التأزم وصلابة قضيته، وانغلاقها، ومع ذلك فمن الصخر ينبع الماء، ومن الشدة ينبع الفرج، ويزول الكرب، متمثلاً فى "المصدر: انبجاس" بقوة الدفع وكثرته.

عاشراً: دلالة: التبرئة:

- ولئن أمسيت محبو ساً فللغيث احتباس

بدأ الشاعر بيته بالقسم المحذوف، مؤكداً أن حبسه ليس لارتكابه أمراً يُسْجن عليه، بل هو أمر طارئ لا يلبث أن يزول مثلما يكون انحباس الغيث طارئا لا يلبس أن يأتي ويعم.

حادي عشر: دلالة: النصر بعد الصبر

- يلبد الورد السبنتى وله بعد افتراس

حقيقة يؤكدها الشاعر من وراء كناية عميقة الدلالة " الظفر والنصر بعد الصبر" وكأن الشاعر فى تصويره لنفسه بالأسد " السبنتي " يؤكد أنه لن يُهزم، وأن صبره ليس عن عجز، وإنما هو لترقب اللحظة التى يجني فيها ثمرة تمهله وعدم يأسه، وإتيان الشاعر" الفعل : يلبد" مضارعاً، يتماس مع هذه الحالة التى تستدعى استمرارية التمهل وعدم التعجُّل للحصول على المراد .

هكذا تكاملت خيوط النسيج النصي عن مفردات وتراكيب لتصوير فجيعة " ابن زيدون " فيما آل إليه أمره، وكان للتعبير الكنائى بما يخفيه تحت قشرته الظاهرة من دلالات غاية فى التعبير عن رسالة الشاعر الرافضة لكل مظاهر الجبن والخداع والنفاق والخسة، حين تتحوصل فى النفس البشرية، وقد أثارت التعابير الكنائية حفيظة

(الآخر / الممدوح)لاقتناص هذه الدوال من أعماقها، التى تمثل الأصداف الحاوية للأحجار الثمينة، والدرر النفيسة فى أعماق البحار.

إنها إذن اللغة الشعرية التى تتحوصل لتمتلئ، وتتخصَّب لتتوالد لغة نابضة تأبى الموت والسكون، ترفض الظاهر لتدخل نحو الباطن معها المتلقي حريص مترقب ، متمهل، منتج، حين يتعامل مع لغة جديدة غير التى يستعملها خارج الفضاء النصي.

* * *

openkandl.com

النموذج الثاني :

يقول البياتي مخاطباً الآخر، متوحداً معه نحو حياة أفضل تنـْثال التعابير الكنائية مع بنية الأبيات اللغوية، مجسدة الرغبة نحو التحرر نحو " الفجر القريب " يقول :

ورفعتَ رايتَك الصغيرةَ في طريقِ الطيبينْ

وهمستْ : إني منكمُ

ومضيتَ مرفُوعَ الجبينْ

سغباً تُغَنِّى الشمس شمسَ ظهيرةِ الفجْر القريب

ويداكَ حبا ترْسمان حمامةَ بيضَاء تحْتضِنُ الصليبْ

وغُصنَ زيتونٍ خصيبْ

لكنَّها الأيامُ دارتْ والسنين[1]

١ـ الشعر ومتغيرات المرحلة، حول الحداثة وحوار الأشكال الشعرية الجديدة مجموعة من المؤلفين، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد العراق، ١٩٨٦ م، ص:٢٤، ٢٥

الكناية وتوليد الدلالة وإنتاجها :

السطر الأول : ودلالة الانسجام والتوحد

فالشاعر مع السطر الأول يستخدم التعبير الكنائى لدالٍ مهم، هو التعبير عن الانسجام والتوحد مع الآخرين نحو مواجهة القهر والظلم إنه يستخدم لفظة "الراية" رمزاً للنهوض، رمزاً للإفاقة، والفعل (رفع) بدلالاته المتعددة، من القيام من كبوة للنهوض، وطرح لأسباب الذل والخضوع، و" الطيبين " دال على الأهل الأبيِّين، الرافضين لكل أشكال الخضوع .

ويأتي السطر (الثاني)

متوحداً مع السطر(الأول) فى ذات الدلالة الكنائية على التضامن والابتعاد عن أسباب الفرقة والشتات (وهمست : إني منكم)

والسطر الثالث :

يستخدمه الشاعر دافعاً به نحو دلالة كنائية معبرة عن : رفض الذل وإعلان الكرامة، إن الشاعر لا ينسى استخدام الفعل"مرفوع الجبينَ" صيغةً أخرى من (الفعل)فى السطر الأول: رفعتَ، مثريا دلالة

القوة والعزم الماضي نحو التقدم، نحو التعايش مع الآخرين فى حب ووئام، ليتحقق للجميع حياة هنيئة محررة كريمة .

ثم إن الشاعر باستخدامه حرف العطف " الواو " فى الثلاثة أسطر السابقة جعل منها دفعة شعورية واحدة نتيجة ازدحام خواطره ورغبته نحو التَّوَحُّد مع الآخر .

مرة أخرى لننعم النظر فى الأسطر الثلاثة السابقة، حتى نجد الشاعر صوَّرها بأفعال على صيغة وزنية واحدة:

رفعت : فعلت

همست : فعلت

مضيت : فعلت

وهذا من شأنه توفير إيقاع متناظر، يوفر حسن الانتقال بين الأسطر، ويجعل كل صيغة تلتفت نحو الأخرى، مجددة دلالتها وإيحاءاتها .

السطر الرابع : ودلالة التحرر .

فدائما ما تكون الشمس رمزاً إيحائيا نحو (الحياة بمعناها الإيجابي)، نحو التحرر والانعتاق، نحو ذكريات مضيئة، إلى غير ذلك مما يحتمله الرمز، ويأتي الشاعر" الفجر القريب " مؤكداً الدلالة الكنائية على مستوى السطر كله: دلالة التحرر.

ويأتي الشاعر بالمصدر " سغباً " مفعول مطلقاً ومُصَدِّرًا إياه أول السطر، مؤكداً مدى الحاجة نحو الحياة الكريمة.

ويأتي السطر الخامس :

ويكثف التعبير الكنائى دلالته نحو العدل والحرية والسلام عن طريق تعبيرين :

حمامة بيضاء = ودال ثان (السلام)

الصليب = العدل

إن الشعراء كثيراً ما يستخدمون هذه الدوال معادلاً لمثل هذه الألفاظ، ويؤكد الشاعر هذا الدال من خلال المفعول المطلق "حباً " مجسداً ومكثفاً الرغبة نحو الخير والعدل والسلام

والشاعر بهذا الصنيع أيضاً، ونعني به إتيان" سغبا وحباً " على نفس(الصيغة)، يجعل الالتفات بين الأسطر حياً غير منفصل وهو لا يدع للنشاز الإيقاعي وجوداً بين الأسطر من ناحية ولا نشازا بين دلالة التعابير الكنائية من ناحية أخرى .

ويأتي الشاعر بالسطر السادس

متوحداً مع الخامس ومدعِّما دلالة التعبير الكنائى عن طريق الربط بـ " الواو " فَـ " غصن الزيتون " دال على السلام والتآخي، ودال على الحياة المنعمة "، وهو غصن خصيب متجدد متوالد، غير عقيم .

ويأتي الشاعر بالسطر السابع دالاً كنائياً "على الندم بعد حلول المصائب والدواهي"، فقد ضاع كل شئ وراء الجدران، فى غياهب الظلم والحرمان، استدراك مرير، فقد ولَّى كل شئ ويبدو أن الشاعر كان يمهد لهذه النهاية الصامتة حين وفر "السكون " على نهاية الأسطر كلها عدا السطر الثاني " بما يحمله

السكون من نتوء بارز خاصة مع حروف " الباء " الانفجاري وهذه القلقلة الناتجة من تحرر الوقوف بالسكون عليه، هي قلقلة أيام وسنين، عاشها الشاعر، وتولَّت، وإذا كان الشاعر قد صنع تجانساً إيقاعياً فى صدور أسطره – كما ذكرنا – فإنه يصنع نفس التجانس الإيقاعي فى أواخر الأسطر، عَبْر صيغة المبالغة " فعيل " التى جاءت الكلمات التالية على وزنها :

جبين ، قريب ، صليب ، خصيب

الشاعر بهذا الصنيع وفر لأبياته إيقاعا متوازناً سواء فى صدرها أو فى عجزها، كما وفَّر الشاعر لتعابيره الكنائية الفضاء الإيقاعي والدلالي المناسبين، مما أدى إلى وحدة الانسجام بين بنيات النص .

* * *